الخواجة نظام الملك

أبو علي الحسن بن عليّ بن اسحاق الطوسي

وهو فصل من كتاب (تجارب السلف) ، تاليف هندوشاه بن سنجرين عبدالله الصاحبى النخجوانى ، ترجمه من الفارسية الى العربية ، مع مقدمته(١) :

أحمد ناجى القيسى

- ١ -

مؤلف (تجارب السلف)

ان مؤلف (تجارب السلف) كما يعرف نفسه فى مقدمة هذا الكتاب هو هندو شاه بن سنجر بن عبدالله الصاحبى الكيرانى • وقد كانت كيران مدينة فى آذربايجان بين تبريز وبيلقان (٢) ، جزءا من تومان نخجوان (٣) • وبناءا على هذا يكون اصل مؤلف الكتاب ومنشؤه او اسرته من ولاية نخجوان • وليس لدينا أية معلومات عن اسرته ، وربما امكن الحدس من نسبة (الصاحبى) التى ترى بعد اسمه بانه كان معدودا فى حاشية الخواجه شمس الدين محمد الجوينى (صاحب ديوان) وخدامه ، او فى جماعة أخى الخواجه شمس الدين اعنى علاء الدين عطا ملك الذى كان يدعى بالصاحب بمناسبة اشتغاله فى صاحب ديوانية بغداد • فعرف جماعة من اصحابه بهذه المناسبة بنسبة (الصاحبى) (٤) • وربما كانت نسبته هذه ناشئة عن الانتساب الى واحد من هذين اللذين كل منهما صاحبديوان • ومما يؤيد خدمة هندو شاه واصحابه لاسرة الجوينى

---

(١) وهى بقلم ناشر الكتاب المرحوم الاستاذ عباس اقبال ، وقد اقتصرنا منها على ما يخص كتاب تجارب السلف ومؤلفه •

(٢) مراصد الاطلاع فى كلمة كيران •

(٣) تجارب السلف ص ١٦ •

(٤) راجع الحوادث الجامعة ص ٤٤٨ وسائر المواضع فى شرح حال ناصر الدين قتلغ شاه الصاحبى مملوك عطا ملك الجوينى •

أن اخا هندو شاه الذى اسمه سيف‌الدولة الامير محموداً ، كان حكم كاشان فى عهدته فى حدود سنة ٦٧٤ هـ ، وقد حكم هندو شاه تلك البلاد ، نيابة عن أخيه [٥] ، فى هذه السنة ، وكانت كاشان فى هذا التأريخ فى حيز حكومة الخواجة بهاء الدين محمد ابن الخواجه شمس الدين ، مع غالب ولايات عراق العجم واصفهان • وكان هذا الخواجه بهاء الدين يقضى الايام فى هذا المقام حتى سنة ٦٧٨ هـ التى هى سنة وفاته ـ فى الحكـــم باستبداد وسطوة تامين • ويضاف الى هذا ان هندو شاه فى كتابه تجارب السلف هذا يذكر افراد اسرة الجوينى بتعظيم واجلال ، على خلاف ابن الطقطقى الذى كان يحقد على اسرة الجوينى بسبب قتل أخيه ، فانه يذكر نسبهم بتعريض فى كتابه (الفخرى) • بينا يدعو هندو شاه كلا من الخواجة عطـــا ملك والخواجة شرف الدين هارون بالصاحب السعيد ، والخواجة شمس الدين بالصاحب الشهيد وبسلطان وزراء الآفاق [٦] •

ويعلم من هذه الاشارة ، اشارة هندو شاه الى حكمه على كاشان نيابة عن أخيه فى سنة ٦٧٤ هـ ، انه كان قد بدأ هذا العمل القليل الاهمية ، قبل مايقرب من خمسين سنة من تأليفه لتجارب السلف فانه يصرح انـه قـد اتم تأليفه فى سنة ٦٢٤ هـ [٧] • فلا بد انه لم تكن سنه فى ذلك التاريـخ قد تجاوزت الثلاثين سنة •

ان هندو شاه يقول فى موضع آخر من تجارب السلف حيث يتكلـم على المدرسة المستنصرية البغدادية انه كان يدرس فى تلك الجامعة التى كانت فى عهد حكم عطا ملك الجوينى على بغداد لها الاهمية نفسها التى كانت قد وصلتها فى عهد المستنصر والناصر • وهذه هى عبارته عينها : « حين كان هذا الضعيف ساكنا فى المستنصرية كان يدرس الطب فيهاابن قيس النصرانى غير أنه كان مسنا وضعيفا جدا ، فجاء شرف الدين الطبيب ، نيابة عنه ، من الجانب الغربى فكان يداوى العيون على صفة ساعة المدرسة ، وكان يدرس

---

(٥) تجارب السلف ص ٣٠١ •
(٦) تجارب السلف ص ٣٤٦ •
(٧) أيضا ص ٣٠١ •

أن اخا هندو شاه الذى اسمه سيف الدولة الامير محموداً ، كان حكم كاشان فى عهدته فى حدود سنة ٦٧٤ هـ ، وقد حكم هندو شاه تلك البلاد ، نيابة عن أخيه [٥] ، فى هذه السنة ، وكانت كاشان فى هذا التأريخ فى حيز حكومة الخواجة بهاء الدين محمد ابن الخواجه شمس الدين ، مع غالب ولايات عراق العجم واصفهان • وكان هذا الخواجه بهاء الدين يقضى الايام فى هذا المقام حتى سنة ٦٧٨ هـ التى هى سنة وفاته ـ فى الحكم باستبداد وسطوة تامين • ويضاف الى هذا ان هندو شاه فى كتابه تجارب السلف هذا يذكر افراد اسرة الجوينى بتعظيم واجلال ، على خلاف ابن الطقطقى الذى كان يحقد على اسرة الجوينى بسبب قتل أخيه ، فانه يذكر نسبهم بتعريض فى كتابه (الفخرى) • بينا يدعو هندو شاه كلا من الخواجة عطا ملك والخواجة شرف الدين هارون بالصاحب السعيد ، والخواجة شمس الدين بالصاحب الشهيد وبسلطان وزراء الآفاق [٦] •

ويعلم من هذه الاشارة ، اشارة هندو شاه الى حكمه على كاشان نيابة عن أخيه فى سنة ٦٧٤ هـ ، انه كان قد بدأ هذا العمل القليل الاهمية ، قبل مايقرب من خمسين سنة من تأليفه لتجارب السلف فانه يصرح انه قد اتم تأليفه فى سنة ٦٢٤ هـ [٧] • فلا بد انه لم تكن سنه فى ذلك التاريخ قد تجاوزت الثلاثين سنة •

ان هندو شاه يقول فى موضع آخر من تجارب السلف حيث يتكلم على المدرسة المستنصرية البغدادية انه كان يدرس فى تلك الجامعة التى كانت فى عهد حكم عطا ملك الجوينى على بغداد لها الاهمية نفسها التى كانت قد وصلتها فى عهد المستنصر والناصر • وهذه هى عبارته عينها : « حين كان هذا الضعيف ساكنا فى المستنصرية كان يدرس الطب فيهاابن قيس النصرانى غير أنه كان مسنا وضعيفا جدا ، فجاء شرف الدين الطبيب ، نيابة عنه ، من الجانب الغربى فكان يداوى العيون على صفة ساعة المدرسة ، وكان يدرس

---

(٥) تجارب السلف ص ٣٠١ •
(٦) تجارب السلف ص ٣٤٦ •
(٧) أيضا ص ٣٠١ •

النحو فيها مولانا جمال الدين بن الأبار النحوى ، فوصل تدريس هذا الدرس منه الى الاستاذ الشهيد مولانا رشيدالدين الرازى[٨] » .

ان كاتب هذه السطور[٩] لم يعثر الا على اسم واحد فقط من هذه الجماعة الذين ربما كان بعضهم من اساتذة هندو شاه او فى الاقل من معاصريه فى المدرسة المستنصرية ، على وجه التقريب فى كتاب الحوادث الجامعة [١٠] تأليف كمال الدين عبدالرزاق بن الفوطى البغدادى (٦٤٢ - ٧٢٣) احد معاصرى هندو شاه ، وذلك الواحد هو ابن الأبار النحوى . ان ابن الفوطى يذكر جمال الدين ابن الأبار النحوى هذا مدرس النحو فى المدرسة المستنصرية فى القسم الذى حدث فيه - وا اسفاه ! - تلف فى هذا الموضع من النسخة المطبوعة ، ويقول انه قد توفى سنة ٦٨١ هـ [١١] ، ولم يتيسر اطلاعنا على تراجم سائر اولئك الاساتيذ فى هذه العجالة .

وفى موضع آخر من تجارب السلف يذكر هندو شاه شخصاً اسمه شمس الدين محمد بن الحكيم الكيشى ويعده من اساتذته وينسب اليه رسالة بالفارسية ، فى شرح دعاء منسوب الى الحسين بن منصور الحلاج[١٢] .

ان شمس الدين محمدا الكيشى الذى كان من مشاهير الحكماء والعرفاء والشعراء فى عصره ومن خواص الاسرة الجوينية ، قد اصبح مدرسا فى المدرسة النظامية البغدادية فى سنة ٦٦٥ هـ بشهادة ابن الفوطى . وذهب بعد مدة من هناك لخدمة بهاء الدين محمد الجوينى السابق الذكر

---

(٨) أيضا ص ٣٤٧ .

(٩) وهو المرحوم الاستاذ عباس اقبال كما ذكرت سابقا [المترجم] .

(١٠) لقد اتضح للدكتور مصطفى جواد ناشر الكتاب المسمى بهذا الاسم ، أنه ليس هو بكتاب الحوادث الجامعة ، فهو اذن ليس من مؤلفات ابن الفوطى . وقد ورد فى مقدمة الدكتور مصطفى جواد على كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادى الحنبلى : « الحوادث الذى سميناه الحوادث الجامعة وليس به » : الحاشية المرقمة ١٢٨ ص ٨١ . وورد مثل هذا القول فى الحاشية ٢٧ ص ٢٦٦ ، والحاشية ٨٠ ص ٤٦ من الكتاب المشار اليه . وانظر الحاشية ٣ ص ٣٨٠ ج ٦ (مجلة المجمع العلمى العراقى) [المترجم] .

(١١) الحوادث الجامعة : ص ٤٢٦ .

(١٢) ص ٢٠٠ .

ابن الخواجة شمس الدين (صاحبديوان) الذى كان يحكم فى اصفهان والقسم الاعظم من عراق العجم ، فى الاقل ، من ابتداء سلطنة اباقا خان اى من سنة ٦٦٣ حتى سنة ٦٦٨ التى هى سنة وفاته • واقام الكيشى فى اصفهان [١٣] وكان يكاتب من هناك استاذ البشر الخواجة نصير الدين الطوسى [١٤] • ولان وفاة الخواجة كانت سنة ٦٧٢ هـ ، يعلم ان شمس الدين الكيشى كان قد انتقل من بغداد الى اصفهان قبل هذا التأريخ الاخير بمدة • اما تلمذة هندو شاه عليه فلا يعلم أفي بغداد كانت أم فى اصفهان بعد انتقال شمس الدين المذكور من بغداد اليها • ويكتب ابن الفوطى وفاة شمس‌الدين محمد الكيشى فى [حوادث] سنة ٦٩٤ أى فى ذيل وفاة سعدى [الشيرازى] وهذه هى عبارته عينها : « وفيها [أى فى سنة ٦٩٤هـ] توفى سعدى الشاعر المشهور بشيراز ، وفيها توفى شمس آل الكيشى [والصحيح : شمس بن الكيشى] بها »[١٥] ويفهم ظاهر هذه العبارة ان شمس‌الدين المذكور قد توفى ، مثل سعدى ، فى شيراز •

ومن معاصرى هندو شاه الذين وردت اشارة الى اسمائهم فى تجارب السلف صدر الدين عبداللطيف القصرى الذى يدعوه هندو شاه مخدوم مولانا المعظم [١٦] ، ولم نقف على ترجمته ومنهم تاج الدين على بن انجب البغدادى ، أعنى ابن الساعى المؤرخ المعروف الذى كان قد توفى سنة ٦٧٤ هـ ، وينقل هندو شاه فقرة واحدة من تأريخه [١٧] • وكمال الدين عبدالرزاق البغدادى اعنى ابن الفوطى (٦٤٢ ـ ٧٢٣ هـ) صاحب الحوادث الجامعة ومجمع الآداب فى معجم الاسماء والالقاب [١٨] •

---

(١٣) الحوادث الجامعة ص ٣٥٨ •

(١٤) راجع مقالة السيد ميرزا سعيد خان نفيسى فى مجلة أرمغان ، السنة الخامسة عشرة ، العدد السادس •

(١٥) الحوادث الجامعة ص ٤٨٩ •

(١٦) تجارب السلف ص ١٦٥ •

(١٧) أيضا ص ٣٢٠ •

(١٨) يقول الدكتور مصطفى جواد : « اسمه الكامل : تلخيص مجمع الآداب المرتب على معجم الاسماء فى معجم الالقاب » انظر حاشية الصفحة ٣٧١ من المجلد السادس من مجلة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٥٩ • [المترجم]

والظاهر ان مقصود هندو شاه فى تجارب السلف [١٩] من مؤلف معجم اهل الآدب هو ابن الفوطى هذا نفسه ، وقد مات قبل الانتهاء من تأليف تجارب السلف بسنة واحدة .

ومن معاصرى هندو شاه جمال الدين ابو القاسم عبد الله الكاشى المؤرخ مؤلف زبدة التواريخ الذى كان لايزال حيا فى عهد تأليف تجارب السلف ، ويسميه هندو شاه ملك الافاضل وقدوة المؤرخين دامت ايامه ، وينقل عنه الخبر الذى كان قد سمعه منه شفاها بقيد الاحتياط [٢٠] ، ومنهم الشيخ العظيم شمس الدين محمد الساوجى [٢١] الذى لم يعلم من هو . وامام الدين يحيى افتخار البكرى القزوينى واخواه : افتخار الدين ورضى الدين بابا [٢٢] الذين ينتسبون الى ابى بكر الصديق والذين كانت لهم مناصب مهمة من عهد منكوقاآن حتى أخر المائة السابعة فى الدولة الايلخانية ، فمن ذلك ان افتخار الدين محمدا الذى هو الاخ الاكبر ، كان يعيش محترما فى حاشية منكوقا آن ، وكان قد ترجم كليلة ودمنة الى المغولية وسندبادنامه الى التركية وان رضى الدين بابا الذى كان يقرض الشعر الفارسى ايضا ، كان مدة من الزمن حاكما على الموصل وديار بكر (من ٦٦٣ حتى ٦٦٦ هـ ، ومرة اخرى من ٦٦٨ حتى ٦٧٦اذ قتل فى هذه السنة)[٢٣] ، وان امام الدين يحيى الذى كان فى الابتداء متقلدا حكومة تومان قزوين ، اصبح بالتدريج صاحب ثروة وشوكة عظيمة وشمل حكمه كل عراق العجم وبعد مضى عشر سنين على هذا الحكم ، ضمن فى سنة ٦٩٦ بلاد عراق العرب وواسط والبصرة ، بمعية ملك الاسلام الشيخ جمال الدين احمد بن محمد الطيبى ، مقاطع منطقة فارس برا وبحرا من جانب غازان خان . غير أن الملك امام الدين بعد انقضاء ثلاث سنين اى من اواخر سنة ٦٩٨ فما بعدها ،

---

(١٩) تجارب السلف ص ١٦ .
(٢٠) أيضا ص ٣٢٥ .
(٢١) أيضا ص ٣٥ .
(٢٢) أيضا ص ١٦ .
(٢٣) الحوادث الجامعة ص ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٧ ، ٣٩٨ .

سحب يد ملك الاسلام عن عراق العرب ، فأصبح متعهد مقاطعة عراق العرب وصاحب ديوان بغداد ، وقد بقى فى هذا المنصب حتى سنة ٧٠٠ هـ التى هى سنة وفاته • وقد ضمن ابنه افتخار الدين عراق العرب من بعده (٢٤) •

ان هندو شاه وان لم يكن بين ايدينا من المعلومات مايتصل بحياته اكثر من هذا المختصر فى ترجمته ـ يظهر لنا جيدا من مطالعة تجارب السلف هذا انه قد كان رجلا عالما حسن السليقة • منشئا صاحب ذوق فى اختيار الشعر ، استاذا بصيرا بالامور ، ذا حظ وافر من فنون الادب • وفى ذلك العصر عينه ، وفى تلك المناطق عينها (اعنى عراق العجم وفارس وتشكيلات افراد الاسرة الجوينية والاتابكه) ، اذ كان الكتاب والشعراء المتكلفون المتصنعون ، مثل شمس فخرى الاصفهانى مؤلف (معيار نصرتى) ، وشرف الدين فضل الله الحسينى القزوينى صاحب (تأريخ معجم) ، يقولون الشعر بتلك الدرجة من التكلف والتصنع ، وينشئون الكتب ، وكلا الكتابين المذكورين ألفا باسم نصرة الدين احمد بن يوسف شاه اتابك لر مربى هندو شاه ومخدومه ـ نجد هندو شاه ، بما وهبه الله من الذوق الطبيعى ، واكتسبه من المعلومات الوافية الصحيحة ، مثل معاصره الآخر أعنى استاذ الفصاحة والبلاغة الفارسية افصح المتكلمين الشيخ سعديا ، يبقى لنا بعده نموذجا من احسن نماذج النثر الفصيح السلس الجزل المحكم فى هذه اللغة ، ويعصمه ذوقه السليم وقريحته المستقيمة من السقوط فى ورطة التصنع والتكلف •

وقد كان لهندو شاه ولد اسمه شمس الدين محمد بن هندو شاه النخجوانى المعروف بشمس المنشىء ، وله كتاب فى فن الانشاء باسم دستور الكاتب فى تعيين المراتب ، ألفه فى عهد السلطان الشيخ أويس بهادر خان

---

(٢٤) لمعرفة أحوال الملك امام الدين يحيى واخويه راجع الحوادث الجامعة ص ٤٩٤ و٥٠٤ ، وتأريخ گزيده الطبعة المصورة للمرحوم براون ص ٨٤٣ ـ ٨٤٤ (وان هذا القسم من تلك النسخة ناقص مضطرب جدا ، وقد نقلنا مضمون تاريخ گزيده فى هذا المورد من نسختنا الخطية الخاصة) ، وراجع أيضا كتاب الفخرى ص ٢١ ؛ فان ابن الطقطقى يروى عنه ـ [اى عن امام الدين] رواية شفهية تخص الاسماعيلية وموقف قزوين منهم •

(٧٥٧ - ٧٧٦ هـ) ، وكتاب آخر عنوانه صحاح العجم ، ألفه باسم الخواجة غياث الدين محمد الرشيدى [٢٥] .

- ٢ -

كتاب تجارب السلف

ان (تجارب السلف) - كما قلنا[٢٦] - كالكتاب المترجم أصلا ، ألفه هندو شاه باسم اتابك نصرة الدين احمد بن يوسف شاه (٦٩٥ - ٧٤٠ هـ) احد الاتابكة الكبار ، استمده من كتاب (منية الفضلاء فى تواريخ الخلفاء والوزراء) [٢٧] ، تأليف صفى الدين بن الطقطقى بتصرف كبير ،

---

(٢٥) راجع ذيل فهرست المخطوطات الفارسية فى المتحف البريطانى تأليف ريو رقم ١٨٩ ، وفهرست مخطوطات المكتبة الوطنية فى باريس تأليف بلوشه ج ٢ ص ٢٦٦ ، ومقدمة حدائق السحر طبع كاتب هذه السطور .

(٢٦) يقول مترجم هذه الاوراق : تكلم المرحوم الاستاذ عباس اقبال على كتاب الفخرى قبل الكلام على هندوشاه كلاما لم نشأ ترجمته ، غير أننا سنجتزىء بأهمه فى الحاشية الآتية [المترجم] .

(٢٧) يعرف هذا الكتاب عند الناس بالفخرى [المترجم] .

ويقول عباس اقبال فى مقدمته لكتاب تجارب السلف (ص ب) :

ان الاسم الحقيقى لكتاب الفخرى بتصريح مؤلف تجارب السلف انما هو منبة الفضلاء فى تواريخ الخلفاء والوزراء (راجع ص ٣ و ٣٤٤) ، ولم يكن عند أى من المستشرقين وطابعى الكتاب المذكور أى اطلاع على هذا الاسم ، ولم يكن عندهم أية معرفة بوجود كتاب تجارب السلف كما اشار الى ذلك العلامة الاستاذ السيد ميرزا محمد خان القزوينى - مد ظله ! - أول مرة فى مقدمة المجلد الاول من كتاب جهانگشاى جوينى (الصفحة يد من تلك المقدمة) .

(ص د) : ليس لدينا شك فى أن هذه النسخة من كتاب الفخرى التى كانت عند هندوشاه هى غير النسخة المتداولة منه اليوم ، فاننا نرى ان هندوشاه يصرح بوجود بعض المطالب فى كتاب منية الفضلاء التى لانجدها فى النسخة التى بين أيدينا الآن ، يضاف الى ذلك ان بعض التواريخ العائدة الى ابتداء وزارة الوزراء وانتهائها مما جرت القاعدة عند هندوشاه ان ينقلها من الفخرى نجد اختلافا فيها بين الفخرى وتجارب السلف ، فكأن مؤلف الفخرى (فى تأليفه الثانى لكتابه) قد غير التواريخ الاولى ...

(ص آ) : وانه (أى هندوشاه) ، علاوة على ترجمة القسم الاعظم والاصلى لكتاب الفخرى ، قد اضاف اليه مطالب كثيرة جدا ، جعلت كتابه ثلاثة أضعاف كتاب الفخرى فى الاقل ...

بزيادة ونقصان فى هذا الكتاب ، اكثره من نوع الزيادة فى مطالبه ، واقله من نوع الحذف من بعض مندرجاته •

من المؤسف ان كاتب هذه السطور لم تتح له الفرصة ـ لضيق مجاله ـ لان يقابل مقابلة كاملة بين كتاب الفخرى وكتاب تجارب السلف ليبين الاختلاف بينهما ، ولكنه يبين بيانا اجماليا فقط ـ ان هندو شاه قد حذف القسم الاول من كتاب ابن الطقطقى المحتوى على الكلام فى الآداب السلطانية وسياسات الحكم ـ كله ، غير انه لم يحذف الا بعض المطالب من القسم الثانى الذى هو مخصوص بتأريخ الخلفاء والوزراء والدول المعاصرة لهم ، وقد اضاف الى كتابه عوض ذلك اضافات كثيرة لاوجود لها فى الفخرى اصلا ، مثل سيرة حضرة الرسول (ص) واحوال وزراء آل بويه والسلاجقة ومطالب كثيرة فى احوال خلفاء بنى العباس المتأخرين ، ونحو ذلك كما انه ضمن كتابه ـ اضافة الى ذلك ـ حكايات وقصصا واشعارا ، فى غضون تاريخ الخلفاء والوزراء اقتبسها من كتب اخرى •

وقد اورد هندو شاه اسماء الكتب الآتية فى كتابه تجارب السلف ، ونقل منها بعض موضوعاته :

ترجمة تاريخ الطبرى [٢٨] : ص ٤ ، ٤١

الكامل لابن الاثير : ص ٣٢٨

شرح نهج البلاغة لعبد الحميد بن ابى الحديد : ص ٣٩

الكامل للمبرد : ص ٤١

كتاب المعارف لابن قتيبة : ص ٤٢

ابو مسلم نامه تأليف الطرطوسى : ص ٨٤ ، ٨٦

---

(٢٨) المقصود هو الترجمة الفارسية لتأريخ الطبرى ، وقد بدأ بترجمة هذا الكتاب الى الفارسية أبو على محمد بن محمد الوزير البلعمي بأمر الامير منصور بن نوح السامانى سنة ٣٥٢هـ • يقول المرحوم ملك الشعراء بهار ان هذا الكتاب يعد ـ بعد المقدمة النثرية للشاهنامة ـ اقدم سند نثري فى الفارسية (انظر ص ٨ ج ٢ من كتاب سبك شناسى) للاستاذ المشار اليه ـ الطبعة الاولى ، طهران ، مطبعة خودكار ، بلا تأريخ [المترجم] •

سير الملوك تأليف الخواجة نظام الملك [٢٩] : ص ١٩٥

اخلاق العميدين ومثالب الوزيرين تأليف ابى حيان التوحيدى : ص ٢٤٤

نفثة المصدور تأليف انوشروان بن خالد الوزير الكاشـــانى : ص ٢٩٦ ، ٣٠١

جوامع الحكايات لسديدالدين محمد العوفى البخارى صاحب لباب الالباب : ص ٧٣ ، ٢٦٩

تأريخ تاج الدين على بن انجب البغدادى (ابن الساعى) ص ٣٢٠

معجم اهل الادب (الظاهر انه لابن الفوطى) [٣٠] : ص ١٦

وغيرها • ويظهر ان هندو شاه كان له فى القسم الاخير من تجارب السلف ، نظر فى ، الحوادث الجامعة لابن الفوطى : فان بعض تلك الاقسام انما هى بعينها ترجمة لما فى كتاب ابن الفوطى [٣١] كوزارة ابى الازهـــر بن الناقد وزير المستنصر ، وغيرها •

عباس اقبال

- ٣ -

الخواجة نظام الملك

أبو على الحسن بن على بن اسحاق الطوسى

سنعبر عن اسم هذا الوزير بالسيد (الخواجة) ، لانه كانت له سيادة الدنيا باستحقاق • ومنذ ان كانت الدنيا لم يجىء بين المسلمين وزير مثله ، وكان مولده يوم الجمعة الخامس عشر من ذى القعدة سنة ثمان واربعمائة ، بنوقان طوس وكان يخدم والده غير ان ماكان يحصله من خدمته لم يكن يفى بمخارجه • وكان للخواجة ، دائما ، محبة مع اهل العلم والصلاح • وقد تعلم القرآن فى الحادية عشرة من عمره واشتغل بفقه الامام الاعظم الشافعى ، وبعد ذلك ذهب الى غزنة ، وخالط كتاب الديوان فمهر فى فنون الادب ،

---

(٢٩) وهو كتاب سياست نامة • [المترجم]

(٣٠) راجع الحاشية ذات الرقم ١٨ [المترجم] •

(٣١) راجع الحاشية ذات الرقم ١٠ [المترجم] •

وظل مدة مع ابن شاذان عميد بلخ فكان يكتب له ، وكان ابن شاذان بين مدة واخرى يقول للخواجة : « يا حسن لقد أصبحت سمينا » وكان يأخذ من الحسن كل مايكون لديه ، ويقول له : « انك كاتب ، وقلمك يكفيك ! » • وحين تكررت هذه الحركات الخسيسة من عميد بلخ ، مل خدمته ، وذهب الى مرو ، وكان هناك جغري بك أبو السلطان ألب ارسلان ، فذهب اليه الخواجة وحكى له حاله ، فأعجب جغري بك كلامه ، وشاهد امارات النجابة والاقبال فى ناصيته بنور الفراسة التى للملوك الاطهار بها اعتقاد ، فأرسله عند ولده الب ارسلان كاتبا ومشيرا ومدبرا • فأرسل عميد بلخ شخصا الى مرو فى طلب الخواجة وكتب رسالة بأن كاتب بلخ قد هرب واقبل عليك ، فهل لك ان تأمر بارجاعه ، فان امور بلخ ستبقى مهملة ، ورأيك هو الاعلى ، فلم يلتفت السلطان الى ذلك بل قال [للرسول] : ينبغى ان تقول له انه سيبقى عند الب ارسلان ، فرجع الرسول بغيران يبلغ طلبته • وحين اصبح الب ارسلان متمكنا فى ملكه اعطى الخواجة الوزارة سنة ست وخمسين واربعمائة • وكان الخواجة فى الظاهرو الباطن محب خير ، موءثر عدل ، كريم نفس ميالا للعلماء والسادات والصوفية والزهاد • وكان يجرى حياته الباطنة والظاهرة بحسب الشرع ولا يلتفت بأية حال الى مشتهياته النفسانية الا مايجوزه له الشرع •

وقيل ان الخواجة ، فى ايام وزارته ، عبر جيحون مع السلطان ، فكتب هذا الى والى انطاكية ان يدفع اجرة ملاحى السفن ومقدارها عشرة آلاف دينار ، فقال له (الخواجة) : ان الطريق من جيحون الى انطاكية تسعة اشهر ، وان ذهاب الملاحين الى هناك من اجل الاجرة متعذر ، فقال : هذا صحيح ، اما غرضى فهو ان يعرف طول مملكة السلطان وعرضها الذين لا علم لهم بذلك • وسيشترى عسكرنا (التحويل) من الملاحين ، وسيصل المال هنا الى هوءلاء •

وكان للخواجة عدة اولاد ، ولى بعضهم الوزارة للسلاطين ووليها بعضهم للخليفة المسترشد • وقيل ان ابنه موءيد الملك قدم عليه من بلخ

وكان له فى ذلك الوقت من العمر عشرون سنة ، وكان حسن الصورة بدرجة الكمال ، وكان الخواجة قد خطب له ابنة ابى القاسم بن رضوان ببغداد ، فاستقدمه ليرسله الى بغداد ليتم المصاهرة ، فحين رأى الولد وجه أبيه قبل الارض بين يديه ، فدعاه الخواجه اليه ، فقبل الارض ثانية ، فاحتضنه أبوه وقبل وجهه وبكى ، وقال : يا ولدى ! اذهب هذه الساعة الى بغداد ، واشتغل بتدبير الزفاف • فودعه وخرج •

افترقنا حولاً فلما التقينا كان تسليمه عليّ وداعا

وحين خرج من عنده مؤيد الملك ، بكى ثانية ، وقال للحاضرين فى مجلسه ، اقسم بالله ان حياة البقالين ومعيشتهم لأحسن منى ، فان البقال ليأتى الى دكانه صباحا ، ثم يعود الى بيته مساءا ، فيأكل ما رزقه الله مع اهله وعياله ، ويجتمع عنده أولاده ، فيسعد برؤيتهم ويسر ، اما أنا ، فمع ما عندى من بسطة الجاه ، وسعة الثروة قد رأيت هذا الولد الذى وصل الى هذه السن مرات معدودات ، ويمضى عمرى العزيز فى تحمل مشاق الاسفار وارتكاب الاخطار ، واقضى الليل والنهار مستغرقا فى مصالح السلطان وممالكه وعسكره وخدمه وحشمه ، وليتنى ـ مع كل ذلك ـ كنت آمنا من الاعداء والحساد ! ومتى استطيع ان أجد لذة عيشى ان تكن الاوقات تمضى بمثل هذه الاحوال ؟ وكيف أقدر ان اؤدى [حق] عبوديتى لله عز وجل ، التى اتينا الى الوجود من أجلها ؟

وقد حكى شخص ، قال : كنت فى مجلس الخواجه فى وقت كانت كل الاقطار والممالك فيه فى تصرفه ، وكان السلطان مطيع اشارته ، فوردت اليه رسالة فحواها أن خمسن مائة حصان عربى كانت ترعى فى موضع بين جبلين ، فطارت بينهما ، فجاءة طيور كثيرة عظيمة كالنسور والعقبان ونفرت الخيل من أصوات اجنحتها ، فوقعت دفعة واحدة فى مضيق عظيم كانت فى نهايته مياه كثيرة ، وكان ذلك المضيق المذكور على مرتفع من الارض ، فاصطدمت الخيل بعضها ببعض فتساقطت فى ذلك الماء ، فغرق اكثرها ، وخرج اقلها من الماء مهيضة القوائم • فلما قرأ الخواجة تلك الرسالة ،

سكت زمانا طويلا ، ثم بكى بكاءا شديدا ، واعجزته تلك المسألة التى كان يدبرها ، فتعجب الحاضرون من ان مثل هذا الوزير يتأثر من هذا المقدار من الخسارة ، وأخذوا يسلونه ويهدئونه ، وكان بينهم شخص من أهل ديار بكر ، فقال : كان فى ديارنا شخص من الاكراد كان له حصان جد حسن ، بحيث كان يعرض عليه شراؤه منه بألف دينار فلا يبيعه ، وكان نصير الدين مروان راضيا بان يضم الى الف دينار ضيعة فيشترى بهما الحصان ، فما كان ذلك الرجل يرضى ببيعه ، وكان يقول : لا استطيع فراق هذا الحصان • وفى يوم من الايام كان امير المدينة قد خرج الى الصحراء راكبا فقالوا له ان حصان فلان قد مات ، وان فلانا متألم لذلك غاية الالم ، ولا يهدأ له قرار فأمر بدعوته ، فكانوا يسلونه فما تفيده تسلية أبدا ، فقال له الامير : ربما كان الله تعالى قد دفع عنك بلاءاً بهلاك هذا الحصان كان يقع عليك وأنت لا تدرى به • فقال له : ايها الامير ! ان مصيبتى انما هى ان الناس كانوا يدفعون لى به الف دينار فلا أقبل ، فقال الامير ، ادفعوا له الف دينار وليكن لى ثواب موت الحصان • ففرح الرجل وتسلم الذهب ورجع الى بيته • وحين افاق فى اليوم الآتى كانت عيناه قد عميتا • وحين بلغ الخبر الامير قال : لقد كان الله عز وجل يدفع عنه ذلك البلاء بهلاك الحصان ، ولكن حين وصله العوض نزل به البلاء ـ [ولما سمع] الخواجة ـ قدس سره ـ [هذه القصة] ـ قال : ليس جزعى على هلاك الخيل ، وليس لذلك المقدار [من الخسارة] قيمة تجعلنى حزينا فابكى ، حتى لو كان المقدار اضعاف ذلك ، غير انى تذكرت شيئا فى هذه الحال استولى على الضعف بسببه • وهو أنى حين قدمت من غزنة لم يكن لدى غير ثلاثة دنانير ، فاقترضت اربعة دنانير اخرى ، فاشتريت حصانا بسبعة الدنانير ، فمات فى ذلك اليوم نفسه فحزنت حزنا عظيما ، واليوم بفضل الله تعالى هلك لى خمسن مائة حصان فلم يحصل فى مالى نقص ، فبكيت من فرحى بأن الله تعالى قد اوصلنى من تلك الحال الى هذه الحال •

وقد روى ابو شيروان خالد فى كتابه « نفثة المصدور » ، قال : سمعت من لفظ الخواجة انه قال : « حملنى الموكلون بالحراسة من منزل الى منزل على حصان ضعيف بطىء السير ، فكنت اذهب معهم وأنا شديد الحزن عظيم الهم ، فاذا فارس قد تقدمنى على حصان مطهم سريع السير وجر الجماعة الى الكلام ، وفى أثناء ذلك التفت الي ، وقال : هل تستبدل بحصانك حصانى ؟ فقلت : ايها الشاب ! ماذا كان يحصل لك لو لم تستهزىء بشخصى المهموم ؟ فقال : انى لا استهزىء بك ، بل أقول جادا • ونزل عن حصانه ، وعطف السرج علي ، واركبنى ، وذهب • وقد حكمت فى الممالك ثلاثين سنة وما رأيت وجه ذلك الشاب مرة ثانية قط •

وقد انشأ الخواجة عدة مدارس فى اقطار العالم ، فى بغداد والبصرة واصفهان وهرات وفى اقصى بلاد الروم •

وقد أورد سديدالدين محمد العوفي البخارى ـ رحمه الله ! ـ فى كتابه جوامع الحكايات ان الخواجة بنى المساجدو الربط ، ووقف عليها الموقوفات الكثيرة ، وابواب البر تلك مضبوطة الى اليوم ومأمولة •

واما نظامية بغداد فمباركة جدا • وقد درس فيها وسكنها عظماء كثيرون من علماء الاسلام مثل الامام ابى اسحاق الشيرازى صاحب كتاب التنبيه ، وحجة الاسلام الغزالى الطوسى ، وانتشر منها الفقهاء والفضلاء فى اقطار الممالك فى اكثر الاوقات ، ولم يسكنها اى طالب لم يرزقه الله تعالى شيئا من العلم • ويقال ان الخواجة حين انتهى من بناء النظامية عين الشيخ ابا زكريا الخطيب التبريزى خازنا لدار الكتب [فيها] ، وكان هذا يتناول الشراب فيها كل ليلة ، ويأتى اليها بالغلمان الملاح ، ويظهر المجون ، وقد كتب عنه أحد بوابى المدرسة تقريرا للخواجة كما كانت العادة عليه ، بين فيه احوال الشيخ ابى زكريا ، فقال الخواجة : انى لن اصدق هذا ابدا • غير انه اتى الى المدرسة فى احدى الليالى متنكرا ، وصعد على سطح دار الكتب واطل من احدى النوافذ فرأى الشيخ ابا زكريا مشغولاً بتلك الحال المعلومة ، ولم يقل شيئا وذهب الى البيت ، وعند الصباح طلب سجل النظامية فضاعف مشاهرة الشيخ

ابى زكريا ومياومته وارسل اليه باوامر الصرف ، وقال لمن يوصلها اليه : أبلغ الشيخ احترامى وقل له : انى ـ والله ! ماعرفت ان للشيخ مخارج كثيرة ، والا لم اكن راضيا له بهذا المقدار من المشاهرة والمياومة • فعرف الشيخ حينذاك ان الخواجة قد اطلع على حاله ، فخجل ، وتاب توبة نصوحا ، ولم يعد الى ماكان عليه ، ولعمرى ان العظماء ليعملون هذا العمل حين يجب عليهم ذلك •

وحين كان الخواجة يبنى النظامية كان معتمده فى بنائها ابا سعيد احمد بن محمد النيشابورى الصوفى ، فأنهوا اليه ـ اى الى الخواجة ـ ان المعتمد قد خانه فى هذا العمل وتصرف فى كثير من ذهب العمارة ، فعرف ابو سعيد بذلك فهرب وذهب الى البصرة ، ثم ندم على هربه فعاد الى بغداد ، ومثل بين يدى الخواجة وقال : ياسيدى ! انك بنيت هذه المدرسة لوجه الله تعالى ، فاترك حساب كل من خان فى ذلك العمل ، لله حتى تنال انت الثواب ، ويحمل الخائن وزر ذلك ووباله معه الى يوم القيامة • فقال الخواجة : ليس غمى من ذلك المال الذى خنت امانته انت او غيرك ، بل غمى من الزمان الذى فاتنا والذى ليس الى تدركه من سبيل ، وقد اردت ان يكون بناء هذه المدرسة محكما كبناء جامع المنصور وبيمارستان عضد الدولة ، فقد سمعت انهم كانوا يصبون لكل آجرة زنبيلا جصا ، وقد قيل لى : انك صرفت مبالغ العمارة فى الآجر المنقوش وانى لاخشى ان يسرع اليها الخراب • ولم يخاطب ذلك الخائن باكثر من هذا الكلام •

اما النظامية التى انشأها فى البصرة فكانت قرب قبر الزبير بن العوام • وقد كانت هذه النظامية أحسن من نظامية بغداد واكبر منها ، وقد خربت فى اواخر ايام المستعصم ، فنقل خشبها وآجرها وموادها الاخرى الى البصرة نفسها وبنيت منها مدرسة أخرى أسميت بالنظامية ، وقد بقيت النظامية العتيقة الآن مثابة آثار تدل على همة بانيها ، كما قيل : ان المبانى تحكى[٣٢] همة البانى •

---

(٣٢) فى الاصل المطبوع : يحكى [المترجم] •

ويقال ان الخواجة طلب من ملك شاه اجازة بان يذهب الى الكعبة ليؤدى فريضة الحج ، فاجازه السلطان بذلك ، فعزم عليه ، فحملت الاثقال والاحمال الى الجانب الغربى من بغداد فضرب المعسكر هناك ، فعبر الخواجة ايضا ونزل هناك • وحكى احد فضلاء بغداد ، قال : كنت فى تلك الحال اذهب الى الخواجة فرأيت احد الدراويش قرب الخيمة تبدو على وجهه سيماء الاولياء فقال لى : عندى للوزير أمانة فتلطف بايصالها اليه ، واعطانى رقعة ، أخذتها منه وذهبت الى الوزير ، فقبلت الرقعة ووضعتها بين يديه ، فتأمل فيها ، وبكى بكاءا شديدا ، فندمت وقلت لنفسى ليتنى لم اعطه الرقعة • وحين انتهى من بكائه قال لى : ايتنى بصاحب هذه الرقعة • فخرجت فلم اجد ذلك الرجل فرجعت واخبرت الخواجة ، فاعطانى الرقعة وقال لى : اقرأها • وحين قرأتها رأيت مكتوبا فيها : رأيت النبى (ص) فى المنام فقال لى : اذهب الى الحسن وقل له : ان حجك هنا ، فلماذا تذهب الى مكة ألم اقل لك ابق فى بلاط هذا التركى ، فاقض مطالب أرباب الحاجات وأغث العاجزين من امتى • فانصرف الخواجة عن عزمه ، ورجع [الى بيته] ، وقال لى : متى رأيت صاحب الرقعة فجئنى به • وبعد مدة رأيت ذلك الدرويش فقلت له : ان الوزير مشتاق الى لقائك ، فلو جشمت نفسك زيارته لكان ذلك لطفا منك • فقال : لقد كانت له أمانة عندى فأوصلتها اليه ، وليس لى معه شأن غيرها ابدا •

النصيحة النظامية :

حين جاء السلطان ملك شاه الى بغداد سنة ثمانين وأربعمائة ، وكان معه الخواجة نظام الملك ، تزاحم على باب الخواجة السائلون فلم يحرم احدا منهم ابدا ، وحين عادا من بغداد ، امر النواب ان يحسبوا المواهب والمبرات فكانت مائة واربعين الف دينار ، وحين جاءا الى بغداد ثانية ، أمر بمنع جموع السائلين والمجتدين • ولم يعط عطاءه المعهود ، فذهب اليه الشيخ ابو سعيد معمر بن ابى عمامة الواعظ الذى كان من جملة العلماء والصلحاء العظام المتحلين بالورع والتقوى فى بغداد ، واراد ان يلقى فصلا من المنشآت

كانوا قد اسموه بالنصيحة النظامية ، فمنعه بعضهم ، فزجرهم الخواجة ، وقال للشيخ ابى سعيد : قل ماتشاء ، فقال ابو سعيد :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مولى الانعام ، وصلى الله على من هو للانبياء اشرف ختام ، وعلى آله الكرام ، واصحابه سرج الظلام ، والسلام على صدر الاسلام ورضاء الامام ، من زينه بالتقوى ، وختم عمله بالحسنى وجمع له بين الآخرة والاولى • معلوم ياصدر الزمان ان آحاد الرعية من الاغنياء البررة مخيرون فى القاصد الوافد ان شاءوا واصلوه ووصلوه ، وان شاءوا حجبوه ومنعوه ، لانهم فى ذلك متطوعون متبرعون ، فأما من توشح بولاية ، أو ترشح لنيابة ، فليس بمخير فى القاصد الوافد ان شاء وصله ، وان شاء فصله ، لان من هو على الحقيقة أمير ، فهو على الحقيقة أجير ، قد باع ذمته ، وأخذ ثمنه فلم يبق له من نهاره ما يتصرف فيه على اختياره ، ولا له ان يخلو بأهله وديارة ، وليس له ان يطالع فى كتاب ، ولا يقرأ مصحفا ، ولا يدخل معتكفا ، دون التبتل لتدبير امورهم والنظر فى مصالحهم ، لان ذلك نفل وهذا واجب ، وترك جميع التطوع خير من تضييع [٣٣] بعض الواجب • وانت ان كنت وزير الدولة ، فانك اجير الامة ، استأجره جلال الدولة بالاجرة الوافرة ، لتنوب عنه فى الدنيا والآخرة • اما فى الدنيا ففى مصالح المسلمين ، واما فى الآخرة فانك ستجيب [٣٤] عنه عند رب العالمين ، فانه سيقفه ويقول له : ملكتك الارض ، وقلدتك امور الخلق ، فماذا صنعت فى افاضة العدل واقامة الحق ؟ فلعله يقول : اخترت لدولتى شيخاً عاملاً بافاضة العدل وليته البلاد ، وقلدته أمور العباد وأمرته بافاضة العدل واقامة الحق ، ومكنته من السيف والقلم ، وبسطت يده فى الدينار والدرهم ، وسميته صدر الاسلام ، قوام الدين ، شمس الكفاة ، وهاهو قائم فى جملة الولاة ، فاسأله يارب ! ما صنع فى بلادك وعبادك !

---

(٣٣) فى الاصل : تضييع • [المترجم] •
(٣٤) فى الاصل : يستجيب [المترجم] •

أفيحسن بك فى ذلك الوقت ان تقول : نعم وليت فتحت الباب ورفعت الحجاب والحجاب ، وبذلت النوال وبثثت الافضال ، حتى قربت من لقائك ودنوت من تلقائك ، ام يحسن بك ان تقول : اتخذت البواب والابواب والحجاب والحجاب ليبعدوا عنى القاصد ويردوا عنى الوافد فيتقلب بالحرمان آئبا ، ويرجع خائبا ؟ ! هذا كسرى انو شيروان حاضر معك فى المكان ، وهو احد [٣٥] عبدة الاوثان ، كان ايام دولته قد فتح بابه ، وسهل حجابه ، حتى قال له ، رسول ملك الروم : ايها الملك ! لقد سهلت على عدوك الوصول اليك . فقال كسرى : انا اتحصن من عدوى بعد لى ، وانما انتصبت لقضاء حوائج الناس فاذا لم يصل الي الرعية ، فمتى اقضى حاجة او اكشف ظلامة ؟ وهذا صاحب الهند عابد وثن ، قد ذهب سمعه [٣٦] فقال : ماحزنى لذهاب هذه الجارحة كحزنى لصوت مظلوم يستغيث بى ولا اسمعه ، فاذا كان قد ذهب سمعى فما ذهب بصرى فاليوم [٣٧] كل صاحب ظلامة يلبس الاحمر ، فاذا رأيته عرفته ، فانصفته . فأنت ياصدر الاسلام أحق بهذه المآثر ، واحرى من أعد جوابا لتلك المسألة [٣٨] ، فان الله الذى تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال :

فى موقف ما فيه الا خاشع

او خاضع او مقنع للراس [٣٩]

اعضاؤهم [٤٠] فيه الشهود وسجنهم

نار وحاكمهم شديد الباس [٤١]

---

(٣٥) فى الاصل : أحدى [المترجم] .
(٣٦) فى الاصل : سمعته [المترجم] .
(٣٧) فى الاصل : فليوم [المترجم] .
(٣٨) فى الاصل : المسئلة [المترجم] .
(٣٩) فى الاصل : للرأس (بالهمز) [المترجم] .
(٤٠) فى الاصل : اعضاءهم [المترجم] .
(٤١) فى الاصل : البأس (بالهمز) [المترجم] .

يوم تظلم فيه الشمس ، ويعظم فيه الكرب ، وينخلع [٤٢] فيه القلب ، ويحكم فيه الرب ، ويشيب الصغير ، ويهرم الكبير ، ويذل الملك والوزير . وذلك يوم غير يسير [٤٣] ، شره مستطير [٤٤] ، يوم يعض الظالم على يديه [٤٥] ، ويقول الكافر : ياليتنى كنت ترابا [٤٦] ! يوم يدعون الى جهنم دعا [٤٧] ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا [٤٨] ، ذلك يوم الآزفة [٤٩] ، يوم الصاخة [٥٠] ، يوم الطامة [٥١] ، ويوم الحاقة [٥٢] ، ويوم الواقعة [٥٣] ، ويوم القارعة [٥٤] ، يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا [٥٥] ، يوم تبدل الارض [٥٦] يوم يتذكر الانسان وأنى له الذكرى [٥٧] ، يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا [٥٨] وترى احسانك الى الرعية ظلا عليك . اما سمعت ان الله ـ تعالى ! ـ خلق لري عطش الخلق سحابين سحابا فى السماء ، يمطر الظل والوبل ، وسحابا فى الارض ، يمطر الفضل والعدل ، فسحاب السماء الغمام وسحاب الارض صدر الاسلام وقد كان سحاب السماء أمطر أمس ، وما هطل الا نادرا ، وامسك سحاب الارض عن

---

(٤٢) فى الاصل : وتنخلع [المترجم] .
(٤٣) من الآية ١٠ (سورة المدثر) .
(٤٤) الآية ٧ (سورة الدهر) .
(٤٥) الآية ٢٧ (سورة الفرقان) .
(٤٦) الآية ٤١ (سورة النبأ) .
(٤٧) الآية ١٣ (سورة السطور) .
(٤٨) الآية ٣٨ (سورة النبأ) .
(٤٩) من الآية ١٨ (سورة المؤمن) .
(٥٠) من الآية ٣٣ (سورة عبس) .
(٥١) من الآية ٣٤ (سورة النازعات) . وهى فى الاصل : الطاعة .
(٥٢) من الآية ١ ، ٢ ، ٣ (سورة الحاقة) .
(٥٣) من الآية ١ (سورة الواقعة) .
(٥٤) من الآية ١ ، ٢ ، ٣ (سورة القارعة) .
(٥٥) الآية ٤١ (سورة الدخان) .
(٥٦) الآية ٤٨ (سورة ابراهيم) .
(٥٧) الآية ٢٣ (سورة الفجر) .
(٥٨) الآية ٣٠ (سورة آل عمران) .

الأنعام ، فما افضل ـ كما عهدنا ـ متواترا ، فلو دام الامساك لدام الهلاك ، لكن الله ـ تعالى ! ـ لم يحب الهلك فى زمن نظام الملك ، فأمر السحاب[٥٩] فامطر وبله[٦٠] وطله ، وانتظر الخلق من سحاب الارض ان يمطر عدله وفضله ، أفيرضى سحاب الارض لنفسه ، مع الذى يراه من سحاب السماء فى أمسه ، ان يقال : جاد ذلك فهمع ، وأعرض هذا ومنع ؟ كيف والله ـ تعالى ! ـ قد مكنه فى الارض وملكه ازمة الابرام ، والنقض[٦١] ، وجمع له بين العمر المديد والعيش الرغيد والملك العتيد والمماليك والعبيد ، والسلطان الشديد ، وبلغه ما يؤمل ويريد ، وهو فى مدينة السلام وقبة الاسلام وحضرة الامام ، التى بنيت على الافضال والبذل ، واسست على النوال والفضل ، وبمثلها يحسن الاحسان والعدل ، والمرء فما يخلد أبدا ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا[٦٢] ، فاشتر بالقليل الفاني من الله ـ تعالى ! ـ نفسك ، واعمر قبرك ، كما عمرت قصرك ، وانتهز الفرصة ما دام الدهر يقبل امرك ، ولا تعتذر فما أحد يقبل عذرك ، واعذر الناس فما يجدون ملجأ دون الله غيرك •

ضربوا بأطراف البلاد فما رأوا
احدا سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التى عودتهم
اولا فأرشدهم الى من يذهبوا[٦٣]

وقد أديت الامانة ، وأسديت[٦٤] النصيحة ، مع براءتى[٦٥] ، من التهمة فليس لى فى الارض ضيعة ولا قرية ، ولا بينى وبين احد حكومة ولا

---

(٥٩) فى الاصل : الحساب • [المترجم]
(٦٠) فى الاصل : وبله (بتشديد اللام) [المترجم] •
(*) فى الاصل : يراه •
(٦١) فى الاصل : النقص [المترجم] •
(٦٢) كذا فى الاصل [المترجم] •
(٦٤) فى الاصل اهديت ، ولا بأس به • [المترجم] •
(٦٥) فى الاصل : برائتى [المترجم] •
(٦٦) فى الاصل : والسلم [المترجم] •

ظلامة ، ولا الى احد من أهل الشرق والغرب حاجة ، وانما استدعيت لك الدعاء ، واستجلبت لك الثناء ، وسعيت فيما يخلد ذكره وأجره ، ويقضى لدولتك بالتخليد ، ولنعمتك بالمزيد ، والله ـ تعالى ! ـ ولى التوفيق لصدر الاسلام • والسلام •

* * *

فلما سمع الخواجة هذه النصيحة أعجب بها ، فأرسل الى الشيخ ابى سعيد بألف دينار فلم يقبلها ، فأجرى الخواجة المواهب والعطايا ثانية على القرار المعهود ، ولم يمنع الحجاب احدا •

ويقال ان الخواجة كان طاهر الاعتقاد جدا ، مسلم القلب وكان له من غم الآخرة اكثر مما له من غم الدنيا •

وقد خطر على باله ان يكتب محضراً فى كيفية حياته مع عباد الله ـ تعالى ! ـ وان يكتب العلماء وعظماء الدين كافة شهادتهم على ذلك المحضر، وان يدفن معه ذلك المحضر فى التراب ، وانما كتب هذا المحضر بسبب حسن اعتقاد الخواجة ، واثبت كل شخص من عظماء الدين شهادته عليه ، ولما ذهبوا بذلك المحضر الى الامام ابى اسحاق الفيروز آبادى صاحب (التنبيه) كتب عليه : « حسن خير الظلمة » ـ مع انه كان مدرس النظامية ، مشمولا بنظر احسان الخواجة وانعامه • فلما قدموا المحضر الى الخواجة ، ورأى خط ابى اسحاق ، بكى وقال : لم يكتب أى من هؤلاء العظماء حقا أبدا كما كتب هو • وبعد وفاة الخواجة رأوا فى المنام ان الخواجة يقول ان الله ـ تعالى ! ـ قد غفر لى ورحمنى بسبب هذا الكلام الحق الذى كتبه ابو اسحاق •

وكان الخواجة من اتباع مذهب الامام الاعظم الشافعى • وبنى السلطان ملك شاه مدرسة فى اصفهان فى محلة كران • ولما ارادوا ان يكتبوا اية طائفة تكون فى المدرسة سألوا السلطان ، فقال : انى ـ وان كنت حنفى المذهب ـ قد انشأت هذا الشىء لله ـ تعالى ! ـ وليس من مبرر لاسعاد قوم والاختصاص بهم ، ومنع طائفة وحرمانها ، فاكتبوا بأن يثبت اهل كلتا

الطائفتين فى هذه المدرسة على التساوى والتعادل • ولان السلطان كان من اتباع الامام أبى حنيفة أرادوا ان يكتبوا اسم الامام أبي حنيفة قبل اسم الامام الشافعى ، فلم يسمح لهم الخواجة بذلك فوقف اصدار الكتاب مدة ، وكان السلطان يقول : لا تكتبوا ابدا مادام الخواجة غير راض ، فاستقر الرأى اخيرا على ان يكتبوا : « وقف على اصحاب الامامين : امامى الائمة ، صدرى الاسلام » •

ويروى : ويروى أنه فى أول أمر الخواجة ، حين عرف عند السلطان واشتهر بالامانة والكتابة والعقل والتدبير ، حصل للسلطان عزم على السفر صدفة وكان الوزير منحرف المزاج ، ولم يكن يستطيع السفر مع السلطان ، وكان ينبغى ان يصحبه واحد من اصحاب الديوان ، فقالوا ان الخواجة حسنا الطوسى مناسب • فأمر السلطان باستصحابه ، ولم يكن للخواجة من الثروة ما يمكنه ان يرتب امره به فى ذلك السفر ، فأصابه غم شديد فتوضأ وذهب الى مسجد ، وسد الباب عليه ، وانشغل بالصلاة وعرض الحاجة على الله ، فوصل رجل أعمى باب المسجد ودخل فيه وقال : من فى هذا المسجد ؟ فلم يجبه الخواجة ، فدار الاعمى حول المسجد بعصاه واحتاط بما هو فى قدرته وأغلق الباب اغلاقا محكما ، وذهب أمام المحراب ولم طرف السجادة ، وحفر قليلا ، فأخرج كوزا مملوءا ذهبا وافرغه فى حضنه ، ولعب بذلك الذهب ساعة ، ثم وضعه فى ذلك المكان نفسه ، وخرج ، فحمل الخواجة ذلك الذهب استقراضا ، بفراغ خاطر ، وراحة ، بلا مذلة ، وهيأ مصالحه كلها كما يليق بالعظماء ومقربى السلاطين ، وسار فى خدمة السلطان ، فارتفع شأنه ، وتشرف منصب الوزارة بذاته المباركة ، ولما عاد الاعمى لم يجد الذهب ، فلم يقل شيئا ، ولم يحدث عنه اى مخلوق ، واعتصم بالصبر • وكان الخواجة يمر بالسوق فى موكب عظيم ، فرأى الاعمى ، فعرفه فقال لغلام : اجلب ذلك الاعمى الى القصر ، واحتفظ به ، حتى أجىء • ففعل الغلام بما أمر ، فلما عاد الخواجة دعا الاعمى اليه ، وأجلسه ، وتلطف معه ، وحينذاك قال : أوجدت ذلك الذهب الذى ضاع منك ام لا ؟ فوثب الاعمى

فتشبث بأهداب ثوب الخواجة باحكام ، وقال : انك الذى سرق ذهبى لانى منذ ذلك الوقت الذى فقد فيه الذهب لم اتحدث حديثه مع اى مخلوق، فضحك الخواجة وأمر ان يعطى الاعمى اضعاف ذلك الذهب ووقف قرية ، فى ولاية مرو ، على اولاده ، كما أن تلك القرية صارت تدعى بقرية الاعمى واغتنى ذلك المسكين وتحرر من ذل السؤال ، اللهم ارحم الكرام من عبادك بمحمد وآله .

مقتل الخواجة الشهيد نظام الملك الطوسى :

ان الخواجة كان وزير الب ارسلان قبل ان يرى عميد الملك الكندرى، وحين قتل هذا ، تأكد واستحكم منصب الخواجة ، وقد دامت وزارته تسعا وعشرين سنة ، قضى منها اربع عشرة سنة وزيرا لالب ارسلان ،وخمس عشرة سنة وزيرا للسلطان ملك شاه ، ويقول بعضهم ان وزارة الخواجة انما كانت ستين سنة ، غير ان القول الاول أصح .

والخلاصة ان الخواجة سخر الدنيا من المشرق والمغرب لسيف السلطان وقلمه وقهر اعداء الدولة ، ورفع شأن الاولياء والاتباع الموءيدين . وكل مايمكن ان يصدر عن الانسان فى الوجود من المكارم والفضائل صدر عن شخصه المبارك . وقد تأثر واغتم السلطان ملك شاه من طول مدة الخواجة [فى الوزارة] واستيلائه على الممالك وتصرفه فى الاموال على سبيل الاستقلال ومن استبداد اولاده واصهاره وخدمه وتحكمهم فى اطراف الدنيا واكنافها ، وصادف ان كانت لعثمان ابن الخواجة حكومة مرو ، فحصلت بينه وبين شحنة مرو خلافات وكان هذا من عبيد السلطان الخاصين، فامر عثمان بالقبض على الشحنة واحتجازه ، فاتى الشحنة الى السلطان واوضح له حاله ، فكانت حركته هذه سببا لغضب السلطان وتألمه تألما شديدا ، فأرسل اركان الدولة موفدين الى الخواجة ، وقال : قولوا للخواجة : ان تكن شريكا لى فى الحكم فذلك حكم آخر وان تكن تابعا لى فلماذا لا تحتفظ بحدودك ولا توءدب اولادك واتباعك وقد تسلطوا على الدنيا ، الى حد أنهم لا يحفظون حرمة عبيدنا ؟ وان ترغب أمرت ان يأخذوا الدواة من

امامك فذهب الوفد الى الخواجة وابلغوه الرسالة ، فتألم وغضب وقال : قولوا للسلطان : انك لاتدرى انى شريكك فى الملك وانك وصلت الى هذه المرتبة بتدبيرى ، وانك لاتتذكر كيف انى جمعت امراء العسكر حين قتل السلطان الشهيد الب ارسلان ، وعبرت جيحون ، ففتحت لك المدن وسخرت لك اقطار ممالك الشرق والغرب • وان دولة ذلك التاج مربوطة بهذه الدواة فمتى ترفع هذه الدواة يرفعوا ذلك التاج • والحق أن جواب الخواجة كان شديدا جدا ، وحين أتم كلامه وسكن غيظه قليلا ، قال لهم : لقد قلت هذا الكلام بعينه ، وان تشاءوا فاعرضوا عليه هذا الكلام بعينه ، وان تشاءوا فقولوا له متفقين ما ترون المصلحة فيه ، فخرجوا من عنده ، وقالوا للسلطان باتفاق : لقد قال الخواجة : انني عبد صغير ، وأولادى أولاد عبد ، وان حكم السلطان نافذ فى أرواحنا وأموالنا فكل ما أمر به لن يحصل تجاوز عنه • وانى ، مع أولادى ، أعمل ما يكون عبرة للآخرين • فسكت السلطان• ولما خلا المجلس بعد ذلك ، قال أحد تلك الجماعة للسلطان : ان ذلك الجواب الذى عرضناه على الملك لم يكن ذلك الجواب الذى قاله الخواجة ، وان عبيدك قد فكروا فى ذلك الجواب متفقين وعرضوه عليك • اما جواب الخواجة فكان كذا وكذا ، واعاد ماكنا قد حكيناه عن الخواجة • فتأمل السلطان ، وضرب صفحا عن ذلك الكلام • فكان الخواجة مستقرا فى وزارته ، متمكنا ، حتى ذلك الوقت الذى ذهب فيه السلطان من اصفهان الى بغداد • فقد تقدم الى الخواجة ، وهو فى بروجرد التى هى مدينة من مدن (لر) الصغيرة ، شخص فى زي الصوفية ، وسلم للخواجة رقعة ، وحين تسلمها منه ، طعن ذلك الشخص الخواجة بسكين ، وقضى على تلك الدنيا من المكارم والفضائل •

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
شريفة صاغها الرحمن من شرف

بدت فلم تعرف الايام قيمتها
فردها غيرة منه الى الصدف

فحصل هياج فى العسكر ، واضطرب الناس فماج بعضهم فى بعض ، فركب السلطان وهدأ الناس • وكانت هذه الواقعة فى رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة • وكان عمر الخواجة فى ذلك الوقت سبعا وسبعين سنة • فحمل غلمان الخواجة والمتعلقون به ، جثمانه الى اصفهان ، ودفنوه فى محلة كران فى موضع يجرى فى وسطه جدول ماء كبير ، نزه لطيف جدا ، ويسمى أهل اصفهان ذلك المقام بتربة نظام(٦٧) •

هندوشاه بن سنجرين عبدالله الصاحبى النخجوانى

---

(٦٧) النسخة التى ترجمنا عنها هى طبعة عباس اقبال الوحيدة (مطبعة فردين ، طهران ، سنة ١٣١٣ الهجرية الشمسية) • [المترجم] •